الشيخ محمد عبده

جمال الدين الافغاني

ما بين مبادىء الشيخين من المشاركة . ما فيها من الضعف والمخالفة لمبادىء العلم الحديث . امتياز محمد عبده على الافغاني بهذا الشان . تاريخ صلات الجامعة بمحمد عبده . رايه في نهضة الشرق

تمهيد

١

لما توفي العلامة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية السابق أبّنته جميع الجرائد العربية في جميع انحاء المعمورة تأبيناً يليق بمثله . وكان كثيرون ينتظرون تأبين « الجامعة » ورأيها في مبادئه واعماله لما قام بينها وبينه رحمه الله تعالى من الخلاف والمناظرة في مسألة « ابن رشد وفلسفته » . وبما ان هذا هو اول جزء من الجامعة يصدر بعد وفاة الاستاذ فقد راينا ان نجيب طلبهم وطلب التاريخ الذي يقضي بالنظر في آثار واعمال مشاهير المتقدمين ليُتخذ منها عبرة وعظة للمتأخرين . وقد قيل ان الرجل العظيم كالجبل العظيم فما دمتَ قريباً منه يظهر لك صغيراً فاذا بعدَ عنك بدا لك عظيماً جليلاً

وقد اسدل الستار على محمد عبده منذ زمان ورعى الدود جسمه الضعيف دون ان يقدر على الوصول الى روحه الخالدة في بطون الصفحات التي سطرها والفتاوى التي أفتى بها ومشروعات الحكومة التي كان من مساعديها ونفوس تلامذته ومريديه الذين قال عنهم اللورد كرومر في تقريره الاخير انهم حزب له وانه اذا نما هذا الحزب فانه ينفع مصر والاسلام نفعاً عظيماً . فغرضنا الان في هذه المقالات المتسلسلة بعد وفاة (الشيخ الرئيس) — وهو جدير بهذا اللقب كابن سيناء لان محمد عبده حلّ محله في العالم الاسلامي في هذا العصر — قلنا غرضنا ان نبحث في هذه المقالات في مبادىء الشيخ محمد عبده واعماله وفلسفته بحثاً يعرّف الرجل الى قراء اللغة العربية حق المعرفة شخصياً وعلمياً ودينياً واخلاقياً . وقد كان هذا الامر في نفسنا منذ زمان . فاتفق انه قبل ركوبنا الباخرة في الاسكندرية

حين كنا نُعدّ كتبنا وقع في يدنا كتاب « الردّ على الدهريين » تأليف السيد جمال الدين الافغاني المشهور الذي ينسب اليه معظم الفضل في يقظة مصر الادبية في هذا العصر . والكتاب مترجم من الفارسية بقلم الشيخ محمد عبده ومساعدة احد نجيدي الترجمة . فاخذنا الكتاب لنطالعه في الباخرة ولما أتينا عليه ادهشتنا فيه امور ما كانت تخطر لنا ببال . فعزمنا يومئذٍ على ضمّ السيد جمال الدين الافغاني الى تلميذه الشيخ محمد عبده في كلامنا عن ترجمة الشيخ ومبادئه . وبذلك يصح الكلام في كبيري علماء الاسلام في العصر الاخير : الافغاني ومحمد عبده

ولما كنا لم نعدّ الى الان جميع المواد التي يقتضيها هذا البحث المهم فقد ارجأنا الشروع فيه الى الجزء التالي . اما الآن فاننا نذكر طرفاً من تاريخ صلات الجامعة بالشيخ محمد عبده قبل المناظرة في مسألة ابن رشد وبعدها . لاننا نرجح انّ قراء الجامعة الذين تتبعوا تلك المناظرة التي كان لها ذلك الدويّ البعيد في جميع أنحاء العالم العربي يلذ لهم ان يقفوا على شيءٍ من ذلك . لا سيما وان آثار اعاظم الرجال حتى اصغر اعمالهم واقوالهم ورسائلهم ينبشها الغربيون من مطامرها بكل الطرق الممكنة . وما كل يوم في الشرق رجل كمحمد عبده

لم نجتمع قط بالشيخ محمد عبده الا انه دارت بينه وبين الجامعة رسائل تبلغ العشرين . واول رسالة كتبها بعد صدور الجزء الاول من الجامعة اول ظهورها . فانه لما اطلع على الجزء الاول عهد الى صديق له في الاسكندرية من اكابر المصريين ان يبلغ الجامعة رضاه عن خطتها وعن مشربها فبعثتُ اشكره على التفاته هذا اليها . فورد منه الجوابي التالي

حضرة الفاضل المحترم فرح افندي انطون

لا تأخذ عليّ في الابطاء بالاجابة فمن الشواغل ما لا يذكر . وقد يمنع عن الجواب واكبر . تذكر ثنائي على مشرب الجامعة وانما يثني على العامل عمله . ويحدّث عن الفاضل فضله . ورجائي ان يتمّ لك ما احسنتَ قصده . وان يعجبك النجاح فيما وجهت عزمك نحوه . والسلام

محمد عبده

١٩ ابريل سنة ١٨٩٩

ثم صدر الجزء الثالث من الجامعة لسنتها الاولى وفي صدره مقالة عنوانها « الاخاء

والحرية » فكتب الاستاذ الينا الكتاب التالي

عزيزي الفاضل

قرأت الجامعة عددها الثالث فاذا كله حسن واحسنه الكلام في خير الامرين منحة الحرية للشرقيين قبل ان يستحقوها او اعدادهم لها قبل ان ينالوها . واختياركم الثاني . وقد ذكرني ذلك كلاماً كنتُ افوله من اثنتي وعشرين سنة وهو تاريخ حركة اذهان الشرقيين في شؤونهم واحسامهم بما وصلوا اليه وما سيقبلون عليه . فاستحسنت ان ابعث به اليكم حتى اذا رايتم نشره في العدد الرابع نشرتموه على انه كلام سُمع عني وحفظه بعض اخواني كما هي الحقيقة لا على اني بعثتُ به اليوم لان الناس يعلمون اني لا ارسل الجرائد وليس فيما تذكرونه من ذلك شيئاً (كذا) يخالف الحقيقة . وهذا هو ما سبق قوله

وهنا اورد شذرة في عشرين سطراً من كتابته الدقيقة المرصوصة المتماسكة كانها دبيب النمل . وخلاصة رأيه ان الشرق لا ينهض الاّ برجل (مستبدّ عادل) يفعل ما فعله بطرس الاكبر في روسيا ومحمد علي في مصر مثلاً . ومما ذكره في هذا الرأي :

« انما ينهض بالشرق مستبد عادل . (مستبد) يُكره المتناكرين على التعارف ويُلجئ الاهل الى التراحم ويقهر الجيران على التناصف . يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ان لم يحملوا انفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة . (عادل) لا يخطو خطوة الاّ ونظرته الاولى الى شعبه الذي يحكمه فان عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية . فهو لهم اكثر مما هو لنفسه

« يكفي لابلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فيها الفكر الصالح وينمو تحت رعاية الوليّ الصالح ويشتد حتى يصرع من يصارعه . (الى ان قال) حتى اذا عرفت الافكار مجاريها بالتعريف . وانصرفت الى ما أُعدت له بالتصريف . وصحّ الشعور بالتعليل . واستقامت الاهواء بالتعديل . أُباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السنّ قضمه والناقه من المرض هضمه . واول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لا على ان تكون آلات تُدار بل على ان تكون مصادر للاراء والافكار . تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية . نعم لا يتيسر لرجل واحد ان يشهد الامر من بدايته الى نهايته ولكن الخطوة الاولى هي التي لها ما بعدها ويكفي لمدها خمس عشرة سنة (وما هي بكثير في تربية أُمة فضلاً عن أُمّة) . هل يُعدم الشرق كله مستبداً من أهله . عادلاً في قومه . يتمكن به العدل ان يصنع في

خمس عشرة سنة [1] ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً »

وفي الجزء التالي سننشر تتمة هذا التمهيد الذي نبسط فيه تاريخ صلات الجامعة بالاستاذ ثم ننتقل الى النظر في مبادئه وارائه واعماله وصفاته ونقارن بينها وبين مبادىء استاذه جمال الدين

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

حب روسو ومدام وارين

(زيارة صاحب الجامعة بيتها في شمبيري)

الذي ابتاعته الحكومة وجعلته مزاراً عمومياً يقصده السياح من اوروبا واميركا

سياحة صاحب الجامعة لقد شاهدت في سياحتي من الاسكندرية الى نيويورك مشاهد عظيمة ورأيت اموراً بديعة وخطر لي في اثنائها افكار كثيرة الا ان فكري لم يسترح بعد لتقييدها وتسطيرها على صفحات الاوراق . فقد زرت في سياحتي هذه مرسيليا ومعرضها الاستعماري العام وشاهدت الاقسام المراكشية والجزائرية والتونسية فيه . ثم زرت باريز وليون وكرنوبل وشمبيري وفالانس وكيلوس وحمامات اكس . وقد قطعت مقاطعة السافوى البديعة التي هي درة في عقد البلاد الفرنسوية من اقصاها الى اقصاها . ومررت فيها بين مضائق جبال الالب البديعة وسط تساقط المطر ولذع البرد وخرير الانهار وصفير البخار . فكنت في القطار كالماً خوذ انتقل من نافذة الى نافذة وانا اقول : هذه جنة الله في الارض . واحياناً اتعمد نسيان نفسي في القطار فجرى بي مرة عشرين ساعة وانا الاحظ البلاد كأنها بانوراما تنبسط امامي الى ما شاء الله وادرس احوال الناس

---

(١) لما نشر هذا الرأي في الجامعة واطلع عليه احد جواسيس الاستانة جاء يسالنا (الا تظنون ان محمد عبده يريد بهذه المدة « ١٥ سنة » المدة التي مرّت على ملك جلالة السلطان) فضحكنا وقلنا له (اذهب واستنطقه ولا تستنطقنا)